مجلة الحكمة للدراسات التربوية والنفسية
Eissn :2602-5248 Issn : 2353-0456
المجلد 10 / العـدد: 04(2022)، ص: 105- 120

التربية والثقافة في فكر مصطفى الأشرف

Education and culture in the thought of Mustafa Al-Ashraf

كريمة سالمي [1]

[1]جامعة مولود معمري، تيزي وزو (الجزائر)karima.salmi@ummto.dz

تاريخ الاستلام: 2022/11/18 تاريخ القبول: 2022/11/30 تاريخ النشر: 2022/12/07

ملخص:

مصطفى الأشرف هو أحد أعلام الفكر والثقافة في الجزائر، ينطوي فكره على نظرة نقدية واعية اقترنت بقناعته بأهمية التربية والثقافة في بناء صرح المجتمع. نتطرّق في هذا البحث لمفهوم التربية والثقافةفي فكر الأشرف، ونروم بذلك الوقوف على ما يمثل معالم الفكر التربوي لديه وعلى موقفه من إحدى أهم القضايا الثقافية والتربوية التي كان له فيها موقف حاسم، وهي قضية التعريب.

أفضى هذا البحث إلى مجموعة من النتائج نحسبها حصيفة، ومفادها أنّ تكوين الأجيال في تصوّر الأشرف عملية طويلة المدى تستلزم جهداً عقلانياً وعملاً ممنهجاً في التربية والتعليم، وقد دعا إلى التأسيس لمنظومة تربوية فعّالة تكفل التعليم الصحيح للجميع، ورأى أنّ التعريب ينبغي أن يتمّ بشكل تدريجي وعقلاني بعيدا عن الاعتبارات العاطفية. وإنّ الثقافة التي كان ينشدها هي تلك التي تكتسب بالجهد الذاتي، الثقافة الفعّالة المتجدّدة باستمرار بفعلالتحديث.

كلمات مفتاحية:الأشرف، الفكر، التربية، الثقافة، التعريب.

Abstract:

Mustafa Al-Ashraf's one of the prominent figures of thought and culture in Algeria. Histhought comprises a criticaland consciousview and his conviction of the importance

of education and culture in the society. In this research, wediscuss the concept of education and culture in histhought and aim to identify the features of hiseducationalthought and his position on the most important cultural and educational issue in whichhehad a firm position, the Arabization.The results of thisresearch: according to Al-Ashraf the formation of generationsis a long processthatrequires a rational effort and an effective educational and an effective educational system thatensurescorrect education for all. He believedthatArabizationshouldtake place gradually and rationally awayfromemotionalconsiderations. The culture hesoughtisthatwhichacquires self-effort, a culture renewedconstantly by modernization.

Keywords: AL-Ashraf, thought, education, culture, Arabization.

***المؤلف المرسل:** سالمي كريمة

1. مقدمة

يعدّ مصطفى الأشرف معلماً من معالم الفكر والثقافة في الجزائرالمعاصرة، وسجّل اسمه في تاريخ الجزائر الثوري بفضل ميسرته النضالية الحافلة، وعُرِف بتبصّرهوبمواقفه الحاسمة وتقديره العقلاني للأمور. وقد اقترن مشروعه المجتمعي بقناعته بأهمية التعليم الصحيح القائم على أسس متينة والمقوّم "الجزائرياتي" في بناء صرح المجتمع.

ينطوي فكر الأشرف على نظرة نقدية واعية ورؤية استشرافية لمستقبل المجتمع، ويقرّ ضمن حديثه عن التربية والتعليم فيما يخصّ الأفراد والمجتمعات، وعمّا يسميه بالتربية الذاتية بالنسبة للمجتمعات،بأنّ التربية تقتضيجهداً عقلانياً في الإعداد والتكوين وأنه ينبغي أن تؤسّس على مبدأ إلزام النفس بالوعي والجهد؛ والسعي إلى تحقيق التوازن بين القديم والجديد.

إنّ الثقافة في تصوّر مصطفى الأشرفليست تلك المحصورة في مجال العلومعلى اختلافها، وإنّما هي التي تقوم على وعي الأفراد بمعطيات المسار التاريخيوالثقافي لمجتمعاتهم، وقدرتهم على فهم الأوضاع وقراءة واقعهم قراءة عقلانية واعية، مع ضرورة التفتح على الثقافات الأخرى، وهذا إيماناً منه بأنّ "الشعب العريق في الثقافة لا يتحمّل الفراغ الثقافي" كما يقول، حتى وإن استلزمت الظروف تبنّي ثقافة مستعارة.

إنّ هذه المسائل وغيرها هي التي سنثيرها في هذه الورقة البحثية، حيثُ سنتطرق فيها لمفهوم التربية والثقافة وأهميتهما في فكر الأشرف، ونهدف من خلال ذلك إلى الوقوف على معالم الفكر التربوي لديه، وعلى موقفه من إحدى أهم القضايا الثقافية والتربوية التي كان له فيها موقف حاسم، وهي قضية تعريب المنظومة التربوية. وسنسعى إلى الإجابة عن الإشكالية الآتية: ما الذي يمكن أن يمثّل معالم الفكر التربوي لدى مصطفى الأشرف؟ ويكون ذلك باتباع الخطوات المنهجية الآتية: مصطفى الأشرف: النضال السياسي والفكري؛من معالم الفكر التربوي لدى الأشرف؛والثقافة المكتسبة بالجهد الذاتي.وسنعتمد في ذلك بشكل أكبر على كتابه (الجزائر: الأمة والمجتمع).

2.مصطفى الأشرف: النضالالسياسي والفكري

1.2 النضال السياسي

كانت بدايات مصطفى الأشرف في النضال الفكري والسياسي من خلال الكتابة الصحفية، وبالخصوص صحيفة "البرلمان الجزائري" التابعة لحزب الشعب الجزائري، وصحيفة "لاكسيون ألجريان" الصادرة عن لجنة العمل الثوري المغاربي 1944، وصحيفة **Temps modernes**.

وقد ناضلالأشرف في حزب جبهة التحرير الوطني في إطار المهام السياسية التي كلّف بها (كاتب سياسي) وعمله في لجنة الصحافة التابعة للحزب بمساهمته في التعريف بالثورة الجزائرية. وفي الإحالة على هذا السياق التاريخي للجزائر ما قبل الاستقلال تجدر الإشارة إلى أنّه: «لعب المفكرون دوراً بارزاً في الصراع ضد الحكم الاستعماري في كل البلدان الآسيوية والافريقية تقريبا، فكان طلاب الجامعات، عادة، جنود المهمات الصعبة للحركات الاستقلالية» (ت.ب. بوتومور، 1972، ص102)، ويندرج ذلك ضمن ما ارتبط به دور المثقف والمفكر في الدفاع عن المبادئ العليا التي آمن بها الإنسان منذ الأزل، ومنها الحرية والإنسانية.

ارتبط اسم مصطفى الأشرف بتاريخ الثورة الجزائرية كذلك من خلال حادثة تحويل السلطات الاستعمارية للطائرة التي كانت تقلّ وفد جبهة التحرير الوطني من المغرب إلى تونس في22أكتوبر 1956، حيثُ كان متواجداً ضمن هذا الوفد وتمّ سجنه مع رفقائه المناضلين دون محاكمة.

وكان الأشرف أحد محرّري ميثاق طرابلس1962، ثم الميثاق الوطني 1976،وتقلّد عدّة مناصب ديبلوماسية بعد الاستقلال، فكان سفيراً بالأرجنتين 1965؛ بالمكسيك 1979؛ وبالبيرو 1984. كما شغل منصب مستشار لدى الرئاسة بالنسبة للمسائل التربوية والثقافية في 1970، ثمّ عيّنه الرئيس هواري بومدينوزيراً للتربية الوطنية في 1977، كما عيّن من قِبل الرئيس محمد بوضياف عضواً في المجلس الاستشاري الوطنيفي 1992.

2.2النضال الفكري

يمثل الأشرف أنموذجاً لجيل من مفكّري الجزائر ما بعد الاستقلال كما قال الجامعي والكاتب إبراهيم سعدي» (-إبراهيم سعدي، 2014، ص299)،وهذا بعدما سجّل اسمه في تاريخ الجزائر الثوري بفضل ميسرته النضالية الحافلة قبل الاستقلال.«ويعد سبب الجمع عند الأشرف، وكذا عند غيره من المفكرين أو

المثقفين الجزائريين البارزين، بين الفكر والوظيفة، وهي وظيفة سياسية رسمية في جل الحالات، إن لم تكن في جميع الحالات، إلى أسباب تاريخية متصلة بحرب التحرير التي كان أثناءها مصطفى الاشرف، كما نعرف، أحد السجناء التاريخيين الخمسة، إلى جانب أحمد بن بلة وآيت أحمد وبوضياف وخيضر. وبهذا الاعتبار يمكن القول بأن مصطفى الأشرف قد دخل معترك الحياة الفكرية من خلال بداية النضال السياسي، مما جعل الأمر طبيعيا أن يؤدي بعد الاستقلال دورا سياسيا، وأن يجمع بالتالي بين الوظيفة والفكر، وأن يكون هكذا من المفكرين الموظفين، إن جاز القول، أو العضويين بمفهوم غرامشي، مثلما كان عامة جيل المفكرين والمثقفين الجزائريين الذين ارتبطوا بحرب التحرير». (إبراهيم سعدي، 2014، ص302)

عرِف مصطفى الأشرف برؤيته النقديةالواعية وبمواقفه الحاسمة من القضايا المصيرية التي يطرحها الواقع الثقافي والاجتماعي في الجزائر، هذا الواقع الذي كان يعنيه ويسائله بوصفه مثقفاً ومفكّرا حاملاً لمشروع مجتمعي، ومن المفيد التذكير هنا بدور المثقف كفاعل اجتماعي، والذي يقترن عادة في متخيل الأفراد بكونه وسيطاً بين السلطة الحاكمة والمجتمع.

ولكن يفترض ألا تمنعه هذه الوساطة من إنتاج الفكر النقدي واتخاذ مواقف ضد السلطة في تموقعه إزاءها كناقد وكمعارض. ونجد في حديث علي حرب ما يؤكد هذه الفكرة، وهو يصرّح بأنّ: «العمالة والوساطة والتوسط لا تقلّل من شأننا كمثقفين، إنها على العكس مفاهيم تتيح لنا أن نعيد ابتكار أدوارنا لكي نستعيد فاعليتنا المجتمعية بالذات، عبر لغاتنا المفهومية وصيغنا العقلانية وممارساتنا النقدية». (علي حرب، 2008، ص175) وإنّ ما يخصّ قضايا المجتمع ومصيره لا يمكن أن يتحكّم فيه السياسيون فقط، وإنّما يضطلع المثقفون كذلك

بدور تبصير المجتمع واستشراف المستقبل، وهم في ذلك يتمتعون بشرعية اجتماعية، ويمثلون،إن صحّ القول، نوعاً آخر من السلطة.

وتكون الفاعلية الاجتماعية المنوطة بالمثقف رهينة القدرة على بناء رؤية نقدية يصل بها إلى استجلاء عمق مجتمعه وتناقضاته ليتطلع إلى التغيير والتجديد.و«فكر مصطفى الأشرف، شأنه في ذلك شأن مثقفي جيل التحرير، لا يسعى إلى مجرد الفهم والمعرفة، أو لنقل المعرفة من أجل المعرفة كما كانت الفلسفة عند اليونان؛ بل يروم التغيير والفعالية، أي التأثير على الواقع في معناه الاجتماعي والاقتصادي الإيديولوجي، أي إلى إخراج البلاد من التخلف، مما يضفي على هذا الفكر الصبغة النضالية أيضا» . (ابراهيم سعدي،2014، ص303) وتُستشّف من آرائهومواقفه تلك الرؤية النقدية الواعية بالرهّانات الثقافية والاجتماعية التي تخصّ مصير المجتمع.

3.من معالم الفكر التربوي لدى الأشرف

يقوم مشروع الأشرف المجتمعي على أساسين: المقوّم الهويّاتي (الجزائرياتي)، ويحيل ذلك على قناعته بأهمية الخصوصية الثقافية للمجتمع الجزائريالمتمثلة في الجزائرياتية،والتي عبّر عنها في أحد مؤلفاته بقوله: (جزائريتنا العزيزة على قلوبنا) (Mustapha Lacheraf, 1998, p 44.)؛والمقوم الثاني هو التعليم الصحيحالقائم على قواعد متينة تكفل له الفعالية، وهو من الأسسالتي يبنى عليها صرح المجتمع من حيثُ تكوين الفرد، ومنه تكوين النخب.

1.3 التربية الذّاتية

يتحدّث مصطفى الأشرف عمّا يسميه بـ «التربية الذاتية» بالنسبة للمجتمعات قبل الأفراد، وبالتحديد تلك الخاضعة للاستعمار،ويرى أنّ المنطلق فيها هوالمبادرة للعملوالسعي من أجل التغيير، وذلك بإلزام النفس بالوعي والجهد؛ ويستدل على أهمية الأمر بقوله: «وإذا تساءلنا عن المستوى الدراسي والثقافي

لهؤلاء الموظفين الصغار والمعلمين والأعوان الجزائريين الذين تعلّموا بأنفسهم في بعض المدن المتوسطة وبعض القرى، فلم يكن لهم من «شهادة» سوى ما اكتسبوه من تجربة في إطار المهنة أو في نطاق العمل الإداري، مضافا إلى تلك التجربة، ما يتميزون به من حماس وتعطش للعلم، ورغبة في الترقي من جهة، والرجوع إلى الأصل الشعبي من جهة أخرى، وما يعتمل في نفوسهم من شك ومن أحلام في التحرر».(مصطفى الأشرف،2007، ص422) ويبقى أنّتمسك الجزائريين آنذاك، أي أثناء الفترة الاستعمارية، بأصلهم وبثقافتهم وعودتهم إلى الذات، كان العامل الأقوى في مقاومة القهر، إضافة إلى المبادرة للتعلّم والعمل. ويمكن الحديث هنا عن قناعة الأشرف بأنّ مصير الشعوب يبقى في يدها حتى في أحلك الظروف، وهو لا يتعلق في الأصل بحتمية تاريخية.

وقد شكّلت هذه الفئة منالموظفين، كما نعلم، جيلاً كاملاً عوّل عليه في التشييد وإعادة بناء الجزائر الحديثة العهد بالاستقلال.ويتضمن مفهوم الأشرفللتربية الذاتية إذن التكوين عن طريق الجهد الذاتي وتحدي الظروف المعاكسة مثلما كان الحال بالنسبة للجيل الثوري الذي قلب الموازين وتغلب على أعظم قوة استعمارية آنذاك، وإن لم تتمكّن الأجيال التي سبقته من تفادي الغزو الاستعماري الذي يمثل أحلك الفترات في تاريخ الجزائر الثقافي والسياسي.

وبهذا الصدد يقرّ الأشرف كذلك بأن «التربية الذاتية تستلزم زعزعة المحتوى الفكري التراثي من جهة، كما تستلزم من جهة أخرى، السعي لتحقيق التوازن بين القديم الذي فقد رونقه وبين الجديد الذي يتقبّله الإنسان بصورة تكاد تكون عفوية، ولا يلبث هذا الجديد أن يصبح هو العمدة في العلاقات الاجتماعية، بل في العلاقات السياسية أيضا، حتى ولو كان لهذا الجديد نقائص وعيوب تفوق نقائص القديم».(مصطفى الأشرف،2007، ص419 و420)

ويقتضي إيجاد هذا التوازن بينالقديموالجديد في نظرهعدم التقوقع في دائرة مغلقة، أيفي دائرة التراث، والمبادرة للتحديث لمسايرة العصر.

ينّم هذا التأرجح بين القديم والحديثلدى الشعوب والأفراد عن نوع من الاضطراب أو الضعف كما يبيّنه الأشرف في حديثه عن السلوك الفكري للإنسان المغلوب، والذي يتجلى في نظره في ثلاث صور:

- الصورة الأولى نجدها في بحث هذا الفرد عن حلّ وسط بين الماضيالذي لابدمن التخلّي عن بعضه، لما في إحيائه من صعوبة،والحاضر؛

- الصورة الثانية تظهر في اجتهاد هذا الفرد لكي يعلّم نفسه بنفسه رغم العراقيل-كما يقول- أي بإلزام نفسه بالجهد الذاتي؛

- وتكمن الصورة الثالثة في السير المتعثر إلى الأمام، وشعور هذا الفرد بعدم الرضى والاضطراب بين الرجوع المستحيل إلى الماضي والمسايرة المستحيلة كذلك للحاضر.(مصطفى الأشرف،2007، ص420)

ويقول عن الثقافة التي يمكن أن ينشئها الفرد في هذه الحالة: «إذا أردنا أن نشبّهها بشيء فيزيولوجي، فإنّها تشبه سوء التغذية عندما يكون مصحوبا برغبات غير مستجابة، واضطرابات توهم صاحبها بأنه شبعان وجائع بصورة متناوبة، من غير أن توقع في روعه بأنه مريض كما يمرض الناس. وهذا الأمر ملحوظ لدى الأفراد، ولكنه ملحوظ أيضا لدى الجماعات».(مصطفى الأشرف،2007، ص419 و421)ويعود السبب في هذه الحالة حسب الأشرف إلى عدم وعي هذا الفرد بالرّهانات التي ترتبط بعدم وضوح الرؤى حينما يتعلّق الأمر بتكوينه الثقافي، كما يعود السبب كذلك إلى عدم تكفّلهبتاريخه في كل أبعاده ومراجعة الذاتواستخلاص العبر.

2.3 التعليم الصحيح

يعتبر مصطفى الأشرفأن الخلاص بالنسبة المجتمعات –المستعمرة منها بالخصوص- يكمن في التعليم الصحيح، ويشير في ذلك إلى ضرورة التحديث وعدم التزمت في السلوك، فيقول: «ينبغي أن نبادر إلى العمل بكل جدّ لتحديث الحياة الاقتصادية والمرافق الاجتماعية ومحاربة الخرافات والأباطيل بكلّ أشكالها، وذلك بإنقاذ الطفولة الدارسة في الدرجة الأولى، وتمكين الجميع من التعليم الصحيح المتشبع بأحدث التيارات في المجتمع المعاصر». (مصطفى الأشرف، الجزائر،2007، ص408)

ويتجلّى هنا أنّ الطفلفي نظر الأشرف هو المعوّل عليه في مشروع تكوين الإنسان الجزائري، أيتكوين النشء، وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلى عبارة كاتب ياسين من أنّ «الإنسان كله يكمن في الطفل»، وتحيل خولة طالب الإبراهيمي عليها في قولها:«لنترك كاتب ياسين، الكاتب الشهير، يصف لنا تصوره ورؤيته الخاصة لهذا الصراع الذي أثر أيما تأثير على وعي وذهنية الجزائريين مدّة طويلة، والذي ظهرت آثاره على أيامنا من خلال التناقضات التي يحياها المجتمع الجزائري الراهن الباحث دوما عن ذاته وعن التراضي الصّعب بين الأنا الحميمية والآخر، بين جذور ومنابع الأصالة والغيرية altérité التي تنهض اللغة الأجنبية بالإبانة عنها: "الإنسان كله يكمن في الطفل، فعندما كنا أطفالا-شئنا ذلك أم أبينا- تبلورت حساسيتنا وتقولبت في اللغة العربية المنطوقة، وكذلك الشأن بالنسبة إلى طريقتنا في النظر إلى الأشياء. في المحصّلة، يمكن القول بأن اللغة هي الحبل السّري الثاني الذي يربطنا بأمّنا، أي الجزائر». (خولة طالب الإبراهيمي،2007، ص 57)

وبالنسبة للأشرف فإنّ التعليم الصحيح يستلزم جهداً عقلانياً في التكوين والتعليم، وعملاًجادّاً ممنهجاً، وبهذا الصدد يعلّق مستنكرا عمّن يستخفّ بمهام التربية وإعداد الأجيال قائلا: «المستغرب بعد هذا أن نسمع، بعد حصول البلاد

على الاستقلال مباشرة، من يدّعي بأنه يمكن بين عشية وضحاها، وبدون أي جهد عقلاني في الإعداد والتكوين، يُمكن خلق جيل كامل من الأعوان والمعلمين والأساتذة المتخصصين في مختلف علوم اللسان، وفي مختلف فروع الثقافة، علما بأن اللسان العربي، والثقافة القومية، ظلا مدة طويلة من الزمن، محرومين من التعبير ومن مسايرة التقدم العلمي في أبسط صوره».(مصطفى الأشرف، الجزائر،2007، ص418) وعلى ذلك، فإنّ التربية والتكوين في تصوّره عبارة عن عملية طويلة المدى تستلزم الوعي بمعطيات الواقع الثقافي، وكذا العقلانية في تقدير الأمور.

ويضيف في هذا الموضوع متسائلاً: «هل يمكن معالجة هذا الوضع (وهو يقصد هنا الوضع الثقافي المزري للإنسان الجزائري بعد قرن وربع من الاستعمار) في سنة أو سنتين أو في عشر سنوات؟ ألا يجدر بنا عوضا من أن ننتظر متى تحدث المعجزة أن نشرع في العمل بطريقة منهجية». (مصطفى الأشرف، الجزائر،2007، ص418) وفي هذا تتجسّد قناعة الأشرف بأن التعليم الصحيح يتطلب العزم على العمل الممنهج لتحقيق النجاعة المطلوبة في مثل هذا المجال الحسّاس.

إن الحكمة والعقلانية اللتين يتّسم بهما فكرالأشرف تتجسّدان في مواقفه من سياسة التعريب التي انتهجتها الجزائر، ففي هذه المسألة كان يمثل الاتجاه الذي يرى بأن التعريب يجب أن يتمّ بشكل تدريجي وعقلاني، بحيثُ يتكيّف مع الظروف والإمكانيات، كما يجب أن يكون مندرجا في التفكير الشامل حول الثقافة والتعليم، وهذا هو ما دعا إليه ميثاق الجزائر (1964) والميثاق الوطني (1976)، ومصطفى الأشرف هو الذي بلور هذه الرؤية وهذا التصور للتعريب في مختلف كتاباته منذ السنوات الأولى من الاستقلال فبالنسبة إليه، كل هذه القضايا المتعلقة بالثقافة والتعليم "يجب أن تعالج بحذر وصرامة، بغرض بلوغ النجاعة.

ولا يجب للاعتبارات العاطفية أو الصلف غير المجدي أن يتدخّل في هذه القضية". خولة طالب الإبراهيمي،2007، ص 57)

وفي هذا الإطار عبّر الأشرف عن موقفه الحازم من الاستخفاف بمشروع تكوين الأجيال أو بالأحرى تكوين النخب الذي تضطلع به المدرسة، ورأى فيما يخصّ الإعداد والتكوين ضرورة إتباع الجزائر مرحليا الازدواجية اللغوية في مجال التعليم، معتبرا أن المواد العلمية، لاسيما الرياضيات، لا يمكن تدريسها باللغة العربية، (إبراهيم سعدي،2014، ص306)وما يمكن قوله في هذا الصدد هو أن موقفه هذا كان في رأي البعضطريقة للنفور من التعريب والإبقاء على منزلة اللغة الفرنسية في قطاع التربية والتعليم؛ بينما رأى البعض الآخر أنّ موقف الأشرف اتّسم بالواقعية في تقديرهلواقع التعليم في الجزائر، وهو الذي أسندت إليه مهام التأسيس لنظام تربوي فعّال.

ويلخص عبد الله شريط حدة النقاش بين المثقفين في الجزائر حول سياسة التعريب قائلا: «إنّ التعريب في بلادنا ظلّ سنوات طويلة موضوع نقاش بين طرفين لا يفهم أحدهما الآخر، فكان شبيها-كما يقولون- بنقاش الصم الذين لا يسمع بعضهم بعضا، ولكن كل واحد يرد على الآخر بما يتوهم من أفكاره، أو ما يظن أنه قاله، أو ما يعتقد أنه خليق بقوله. ولكن المؤكد أنه لم يحصل لحد الآن نقاش هادئ بين معربين ومفرنسين في قضية التعريب بالخصوص، وما يكتفها من جوانب وما تمتد اليه من أبعاد حضارية وسياسية وفكرية. فبقيت قضية يقنع فيها المعرّبون معرّبين أمثالهم، والمفرنسونمفرنسين مثلهم بحجج عاطفية في الغالب لدى الطرفين ومدفوع فيها الجميع عن وعي أو عن غير وعي بما بتوهمه مصلحة عامة، غير مبال بما قد تكون عليه مصلحة الطرف الآخر التي لا يضع منها شيئا في الحساب». (عبد الله شريط،1984،ص06) ولعلّ ما يمكن أن يفسّر التضاد في المواقفبين المثقفينالجزائريين إزاء قضية التعريب هو ذلك الانقسام بين

المعرّبين والمفرنسين في التوجه الإيديولوجي والمرجعية الثقافية، وذلك الشرخ الذي بدأ يتعمق بينهم غادة الاستقلال.

كان التعريب إحدى أهم القضايا الثقافية والتربوية التي كان فيها للأشرف موقف حاسم كمسؤول أول على قطاع التربية والتعليم في1977، وهو الذي قال مستشرفا آفاق سياسة التعريب في الجزائر: «إن كان هناك مشكل تعريب، فإن هناك كذلك مشكلا أعمّ وهو مشكل التعليم ولا يجب التضحية بهذا على حساب الآخر، إن محتوى لغة بعينها وحساسيته الوطنية لا يمكن تحويلهما وتحسينهما إلاّ من الداخل، بالدراية اللاّزمة ودون انفعال سمج. يجب إذن السعي من أجل بلوغ تعليم معرّب جدير بهذا الإسم وإلا فإن التعريب المرتجل والعاطفي سيكون إن آجلا أو عاجلا موضوع نفور غير مستحقّ من قبل ذويه». (مصطفى الأشرف في **Revue Algérienne des SciencesJuridiques, septembre 1977, n°3, vol. XIV,p466.** وذكرته خولة طالب الإبراهيمي، 2007، ص221)

إنّ هذا الحسم في المواقف والطابع الاستشرافي في فكر الأشرف يمكن أن نجد ما يفسّره فيما ذكره إبراهيم سعدي من أنّ: «فكر مصطفى الأشرف والفكر الجزائري عامة، هو فكر "متمركز حول الذات" بسبب انتمائه إلى بلد يحتاج إلى أن يكون موضوع معرفة وبناء وتشكيل وتطوير في كل الميادين. وهذا ما يجعل فكر مصطفى الأشرف نموذجا لذلك الفكر الملتزم الذي ميز جيلا من المثقفين الجزائريين الذين ارتبطت حياتهم بحرب التحرير وبتجربة الاستعمار عامة وبتحديات ما بعد الاستعمار». (إبراهيم سعدي، 2014، ص303)

4. الثقافة المكتسبة بالجهد الذاتي

إنّ المعطى الثقافي في أي نظام اجتماعي كان هو من المحدّدات التي من شأنها رسم هوية المجتمع وخصوصياته، ويكون تثبيته دون شك من خلال التنشئة الاجتماعية والعمل التربوي. وهذا المعطى حسب محمد عابد الجابري هو الذي يفرض نفسه اليوم، إذ إنّ المسألة الثقافية في نظره لم تعد في الظل، لم

تعد "تابعاً"، بل إنها اليوم تطغى على سطح الأحداث، أو على الأقل تزاحم وتضايق على هذا السطح غيرها من المعطيات. (محمد عابد الجابري؛ 1999، ص17)

وإنّ الثقافة في مفهوم الأشرف تتجاوز نطاق العلم، وفي هذا يوضح: «علينا أيضا أن نعطي للكلمتين "ذكاء" و"ثقافة" معنى غير محصور في نطاق العلم المستمد من الكتب، بل نعطيهما معنى يتضمّن نصيبا من الفهم السليم ومن الواقعية، ومن الاقتناع الثابت، ومن القدرة على تحليل المواقف، ومن النظرة الواسعة لعصرنا وما تتطلبه من التفتح الصحيح، المتحرر من التقليد الأعمى، لكي نستفيد من الثورات الأخرى التي أصبحت من تراث الإنسانية». (مصطفى الأشرف،2007، ص 446-447)

وتقتضي الثقافة في رأيهالتفتح ومسايرة العصر إيماناً منه بأنّ الشعب العريق في الثقافة لا يتحمل الفراغ الثقافي، ولكي يشبع هذه الحاجة، فهو لا يرى مانعا من استعارة لغة أخرى بدلا من لغته التي أصبحت محرّمة عليه كأداة للتعبير في المداس، وكأداة للكتابة والتأليف بل أحيانا كأداة للتخاطب، (مصطفى الأشرف،2007، ص416) فإنّ الحاجة إلى الثقافة بالنسبة للفرد الجزائري المستعمَر كانت أقوى في تلك الظروف العصيبة التيألزمته باستخدام لغة الآخر وتبنّي ثقافة مستعارة.

كان هاجس الأشرف أن يتحقّق لدى الجيل الجديد الوعي بثقافته، وأن يقترن هذا الوعي بالتفتح على تراث الإنسانية، ليتسنى له التموقع إزاء الحضارة العالميةوتحدي الظروف المعاكسة، مثلما كان الأمر في نظر الأشرف بالنسبة للجيل الثوري-الجيل الذي ينتمي إليه- والذي قلب الموازين وتغلّب على أعظم قوة استعمارية، وهي الفئة التي رفعت التحدّي في إعادة بناء الجزائر بعد استقلالها، وهو يعود إلى ما كان وراء الكفاح والنضال في قوله: «إذا نظرنا إلى تطلعات الحركة القومية، وتطلعات المجتمع المكافح من أجل البقاء والتشييد، فإننا نلاحظ بأنهما يلتقيان حول نقطة مشتركة، وهي الاضطرار لمسايرة الحضارة، والاحتياج الدائم إلى الثقافة».(مصطفى الأشرف،2007، ص 419)

ويرى العربي ولد خليفة أنّ «للمسألة الثقافية في الجزائر، قديما وحديثا، أهمية بالغة وتأثير في تصور الذات ومدلول الانتماء، وتعيين الخاصوالمشترك من

التراث والنظرة إلى الآخر في العالم والمحيط بنا أو على الأصح الموجود في مخيلتنا أو في واقع الحال. يظهر ذلك التأثير حتى بين عامة الناس في تصنيف الماضي الثقافي إلى مقاطع منفصلة –يمكن بترها افتراضيا أو نكران وجودها أصلا (التعامل مع تراث ما قبل الفتح الإسلامي وما بعده تراث ما قبل الاحتلال، وتركهالكولونيالية، ملامح البناء الثقافي بعد التحرير». (محمد العربي ولد خليفة، 2003، ص 09.)

وفي خضم الإشكالات الاجتماعية والثقافية التي لم تحسم بعد في جزائر القرن الواحد والعشرين، العصر الذي له متغيراتهومقتضياته فيما يخصّ ولوج عالم لا نمتلك كل مفاتيحه، فإنّ مسألة الوعي بالذات لازالت مطروحة بالنسبة للنشء وخاصّة في ظل ما وصفه عروس الزبير فيما سبق بالعداء بين فئات المجتمع، وهو العداء الذي أخذا الطابع العنيف في رأيه بين هذه الفئات التي كانت لوقت قريب تبدو منسجمة عقائديا وثقافيا، ممّا عطّل بل شلّ عملية الإدراك لدى الفرد الجزائري، وبالتالي إمكانية استيعابه للقيم المشتركة والمشكّلة لوعي ذاته، والدخول في علاقات تبادلية مع القيم الإنسانية بصفة عامة. (عروس الزبير، 1993، ص4)

بين الماضي المجيد والتراث العريق والتطلع إلى ولوج عالم العصرنة يقول شريط: «إن هذا الوضع الثقافي الجديد الذي يضع لغتنا وثقافتنا وجهاً لوجه مع لغات الأمم المتقدمة وثقافتها العلمية –هو الذي صير كل قيمنا اللغوية والثقافية فارغة من محتواها النفعي للمجتمع، ومع ذلك، فإن هذا الفراغ لم ينقص من تشبثنا بها. اننا لم نستطع أن نحقق التوازن العسير بين ما اكتسبناه من الماضي، وما اكتسبناه من الأجانب بصورة عارضة ومبتورة، صيرته أخطر علينا مكتسباتنا التقليدية. فسرنا في طريق يلامس الماضي والحاضر والمستقبل من بعيد، دون أن يتوغل في أي واحد منها. وهذا ما يفسر خطواتنا المتعثرة الصعبة إلى الأمام، والتواء أعناقنا إلى الماضي كأننا نودعه لأننا نعرف أننا لن نعود إليه.وهو أيضاً ما يفسر غموض الرؤية واضطرابها عندنا في مجال اللغة والثقافة عامة مما نشأ عنه أحياناً نتائج فاجعة في دخولنا إلى العالم المعاصر مع إحياء تراثنا القومي». (عبد الله شريط، 1981، ص 151.) وإنّ الثقافة التي كان ينشدها مصطفى الأشرف هي

الثقافة الفعّالة المتجدّدة باستمرار بفعل الاحتكاك بثقافات لمجتمعات الأكثر تحضّراً. وهو في ذلك يحث الجيل الجديد على تبني النظرة الواسعة للعصروالتحلّي بالوعي بالرّهانات الاجتماعية والثقافية، والسعي بنفسه إلى التأسيس للفكر النقدي البنّاء، وعدم الانغلاق في المرجعية التراثية، وفي دائرة الاعتقادات الزائفة التي تجاوزها الزمن.

5. خاتمة

اقترن مشروع الأشرف المجتمعي بقناعاته الثابتة في مجال التربية والثقافة، والتي تمحورت حول التربية الذاتية والتعليم الصحيح، فيما يخص الفرد والمجتمع؛ وكذا الثقافة التي تُكتَسب بالجهد الذاتي بعيداً عن التزمت في الأخلاق والسلوك، وهذاإلى جانب وعي أفراد المجتمع بهويتهم، والذي من شأنه أن يكفل لهم القدرة علىالتكفّل بتاريخهم الثقافي والسياسي.

كانتقضية التعريب إحدى أهم القضايا الثقافية والتربوية التي كان على مصطفى الأشرف معالجتها كمسؤول أول على قطاع التربية والتعليم في 1977، وفي إطار ذلك دعا إلى عدم الاستخفاف بهذا المشروع وإلى ضرورة إتباع العمل الممنهج، أي تعريب التعليم تدريجيا، والإبقاء على الازدواجية اللغوية مرحليا.

ومن النتائج التي أفضى إليها هذا البحث أنّ الثقافة التي كان ينشدها مصطفى الأشرف هي تلك التي تُكتسب بالجهد الذاتي، الثقافة الفعّالة المتجددة باستمرار بفعل التحديث. وأنّ تكوين الأجيال في نظره قضية لا يمكن أن يستهان بها، فهو عملية طويلة المدى تقتضي جهدا عقلانيا وعملا ممنهجا في التربية والتعليم، وهما المجالان اللذان شكّلا لديه هاجساً حقيقياً.

وارتبط هذا الهاجس بحرصه على تأسيس منظومة تربوية فعّالة، أي منظومة تتمخض عن التفكير العميق والشامل حول الثقافة والتعليم في الجزائر

وتكفل التعليم الصحيح للجميع، وهو التعليم الذي ينبغي أن يقوم في رأيه على الجهد العقلانيوالتحديث والعمل الممنهج، بعيداً عن النظرة الضيقة والاعتبارات العاطفية.

ونقترح في هذا المضمار خلق سبل التواصل الفكري بين الأجيال الجديدة وبين أعلام الفكر والثقافة في الجزائر، أمثال مصطفى الأشرف، من خلال فتح ورشات عمل على مستوى الجامعات الجزائرية للوقوف على المحطات الهامة في مسارهم السياسي والفكري وملامسة بصمتهم في تاريخ الجزائر الثقافي.

6. قائمة المراجع:

الكتب

ت.ب. بوتومور. (1972). النخبة والمجتمع (الطبعة الأولى)، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

شريط، عبد الله. (1981). من واقع الثقافة الجزائرية، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

شريط، عبد الله. (1984). نظرية حول سياسة التعليم والتعريب، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

حرب، علي. (2008)،*أوهام النخبة أو نقد المثقف*، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب.

ولد خليفة، محمد العربي، (2003.). *المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية*، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

عابد الجابري، محمد. (1999).*المسألة الثقافية في الوطن العربي* (ط2)، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

الكتب المترجمة

الأشرف، مصطفى.*الأمة والمجتمع* (2007)، تر: حنفي بن عيسى، الجزائر: دار القصبة للنشر.

طالب الإبراهيمي، خولة. (2007)، الجزائريون والمسألة اللغوية، تر: محمد يحياتن،الجزائر: دار الحكمة.

الكتب الأجنبية

Mustapha Lacheraf, Des noms et des lieux, mémoire d'une Algérie oubliée. Editions Casbah, Alger, 1998

المقالات

سعدي، ابراهيم. (2014).*مصطفى الأشرف نموذجا لجيل من مفكري الجزائر ما بعد الاستقلال*، مجلة معارف، العدد 15، جوان، ص 302-306

الزبير، عروس.(1993). *الذات الممزقة بين "الانا" "والاخر" رؤية حول طبيعة الصراع الثقافي في الجزائر*، نقد، مجلة للدراسات والنقد الاجتماعي، رقم 5، أفريل-أوت، ص4.